الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

ملخص الفصول السابقة

« لما وضعت حروب طروادة أوزارها عاد جميع أبطال الاغريق إلى أوطانهم ماعدا أودسيوس ملك إيثاكا فقد نسي أن يضحي للآلهة قبل أن يبحر فأضله نبتيون إله البحار ووقف له بالمرصاد وأغرق أساطيله وظل يترصده كلما هم بالعودة إلى وطنه حتى انتهى به المطاف إلى ملك الفياشين الذي أحبه وأكرم مثواه وأرسله على بعض سفنه إلى شاطئ إيثاكا — وبينما كان أودسيوس في تجوالاته كان أمراء المملكة قد يئسوا من أوبته وعشقوا زوجته ، وطمعوا أن تختار أحدهم زوجاً لها مكان أودسيوس لفرط جمالها وباهر حسنها ولكنها شغلتهم عن نفسها بحيل اخترعتها حتى عاد زوجها ولقي ولده تليماك واتفقا على الانتقام من العشاق كما سيأتي ... وكان أشد العشاق هياماً بپنلوب هما أنطونيوس ويوريماخوس من نبلاء إيثاكا — وسيلفيان أول الناس مصرعهما ... »

الانتقام الهائل ...

وألقى أودسيوس أسماله ، واطّرح مِزَقه ، وبرز للملأ أودسيوسَ القويَّ الحديديَّ الجبار ، وتناول كنانة الأسهم التي تهمهم فيها المنايا وتغمغم ، والقوس العتيدة العنيدة ، ووقف فوق الوصيد حتى لا يفر أحد من أعدائه فينجو من الموت الذي هو ملاقيه ، ثم نثر الكنانة عند قدميه وهتف بالعشاق يقول : « وهكذا يا سادة تتم فصول المأساة ، وهكذا أيضاً تنتهي المباراة التي لم يفز فيها واحد منكم ... والآن ... أنظروا ... إني لن أسدد سهامي إلى هذه الأهداف بعد ، بل إني مسدد إلى غرض آخر .. »

وشد الوتر العُرُد ، وأرسل إلى حلقوم أنطونيوس سهماً مُرَاشاً عجّل به إلى هيدز . وكان العلج يوشك أن يحتسي كأساً ذهبية من أعتق الخمر ، فسقطت الكأس من يده الذاهلة ، وسقط هو يتشحط في دمه ، ويلفظ أنفاسه . وذُعر الآخرون حينما رأوا أخاهم يسقط إلى الأرض رمّةً لا نأمة فيها ولا حراك ، وهاجوا وماجوا ، وهبوا يبحثون عن أسلحتهم ... ولكن هيهات ! لقد أخفاها أودسيوس وولده ليلة أمس ... فأنى لهم بها !! وصاحوا بأودسيوس : « أيها المجنون لقد أخطأت المرمى ! ماذا أصابك ؟ إنك تسدد إلينا ؟ لقد قتلت أنبل شباب إيثاكا ، ثكلتك أمك ! أبداً لن تحمل بعد هذه قوساً أبدا

وانكشف الستر ، وعاد إلى الشحاذ الفقير عنفوانه ، وانقذفت من فمه الحُمَمُ فقال : « أيها الكلاب ! قالَ[1] مازعمتم أن أودسيوس لن يؤوب ! هأنذا أيها العبيد ! لقد استبحتم حمى بيتي وأذللتم قُدْسَه الحرام ، وأوْضعتم في الفتنة فاعتديتم على نسائي ولم تبالوا أن تتعشقوا زوجي بينما رجلها حي يسعى على قدميه ، غير عابئين بمن يطلع عليكم في السماء وهو بكم محيط ، ولا مبالين بما تضج به الرفات الكريمة في ثرى هذه الأرض من فعالكم ، فويل لكم قد حان حينكم !! »

(١) خاب

وارتعدت فرائص الكلاب كما دعاهم أودسيوس وطارت حمرة الخمر من خدودهم ، ووقف يوريماخوس متخاذلاً وهو يقول : « إن كنت حقاً ملكنا أودسيوس فكلنا نعتذر عما ارتكبناه من الإثم فى بيتك . ولقد تكلمت فقلت الحق كل الحق ولكنك قد أرديت أنطونيوس الذى دعانا إلى كل ذلك والذى كان يطمح أن يتربع على عرشك ويملك كما ملكت ، فاعف عنا واصفح عن خطايانا ، فنحن بالرغم من كل ما حصل شعبك الأمين ورعاياك الأوفياء الأولياء ... على أننا سنعوضك مما استبحنا مالاً بمال وعتاداً بعتاد » فقال أودسيوس : « يوريماخوس أيها النذل ! إنكم مهما ملأتم يدى بالذهب فلن تشفوا حَرَدى ولن تذهبوا غلتي حتى أنتقم منكم جميعاً لما صدر عنكم من إفك وما ارتكبتم من أوزار ! فاختاروا لكم ! الحرب التى جدت بكم فجدوا بها ، والقتال الذى لا محيص منه ولا محيد عنه ، أو ... فالفرار الفرار ... ولن تجدوا إلى الفرار سبيلا ... » وزلزل الجميع زلزالاً شديداً ، وجفت ألسنتهم فى حلوقهم فما عرفوا ماذا يُحيرون ، ثم هتف فيهم يوريماخوس فجأة يقول : « أيها الإخوان لقد تحجر قلب هذا الرجل فلن يعرف سبيلاً إلى الرحمة ، وها قد قبض على القوس بكلتا يديه ، ووقف فوق الوصيد يذودنا عن الباب ، ولن يفلت أحد منا من سهامه قط ، بل إنه سيقنصنا واحداً بعد واحد ... ولا أرى إلا أن نفزعوا إلى سيوفكم فنخترطوها ، وإلى المناضد فنتدرعوا بها ، ثم نهجم عليه كرجل واحد عسى أن نزحزحه من الباب فننجوا بأنفسنا ونلوذ بالفرار فإذا بلغنا المدينة فاننا سالمون ! » ثم فرغ من صيحته واستل جُرازه ، وهجم على أودسيوس مُرْعداً مزمجراً ، ولكن أودسيوس أصماه بسهم فى صدره فصرعه ، وخر اللئيم يعالج سكرة الموت ، وانتشرت ضبابة الفناء الأبدى على وجهه القبوح فأطبقت عينيه ... وهنا ... هاج الأمير أمفينوم وماج وهجم على أودسيوس بسيفه الذى تقطر من حده المنايا ... وكاد اللئيم ينال من خصمه منالاً لولا أن قفز تليماك برمحه العظيم فأغمده فى صدره ورده عن أبيه وعاد مكانه دون أن ينتزع الرمح مخافة أن يتكاثر عليه الأعداء ... وقال تليماك لأبيه : « أبتاه ! إنه يجب أن نستعد بسلاح أكثر ... وإنى ذاهب فمحضر ما نحتاج إليه وعائد بسرعة البرق » فقال أبوه وهو يتصيد القوم بسهامه : « هلم يا ولدى وهات ما استطعت ، فلشد ما أخشى أن تفرغ هذه السهام فلا أستطيع أن أدفعهم عن الباب ... » وانطلق تليماك إلى غرفة السلاح فأحضر ما مست الحاجة إليه من رماح وسيوف وخوذات ، وادّرع بما هو حسبه منها ، ثم ألبس الراعيين الأمينين أضَاتَيْن دِلاصَيْن [1] وزودهما بسيفين بَتّارين ، ووقف الثلاثة إلى جنب البطل العظيم يمنعون تكاثر العشاق عليه ، بينما هو يرسل سهامه فتخترقهم وتستأصل شأفتهم واحداً فواحداً ، حتى إذا فرغت سهامه ، وقف الأبطال الثلاثة يذودون من دون الباب حتى لبس أودسيوس دروعه ووضع على رأسه خوذته ، وأخذ رمحين عظيمين فى كلتا يديه ، وعاد إلى كفاحه وكانت ثمة فى الجانب الآخر من البهو بوابة صغيرة لم يفطن العشاق إليها ، فأرسل أودسيوس راعى الخنازير ليحرسها وليحول بين العشاق وبينها ... وضاقت الدنيا حتى غدت كحلقة الحابل فى أعين القوم ، وتجهمت لهم حتى غدت كالليل البهيم ألقى غواشيه فوق رؤوسهم ، وناء بكلكله على صدورهم ... فقال

(١) درعين سابغتين

قائلهم : « ألا يستطيع أحد أن يمرق من البوابة فيصيح بأهلنا ويستنجدهم لنا ؟ »

فانبرى له ميلانتيوس [1] يجيبه : « هذا عبث لن يكون وراءه طائل ، فإن رجلا واحداً يستطيع أن يقفنا جميعاً لو فعلنا ، دون أن نبلغ الباب ... بل لدي فكرة ... إني أعرف أين خبأ أودسيوس وابنه أسلحتنا ، وسأنطلق فأحضر لكم منها ما يقيكم منها ... » ثم تعلق بحبال مدلاة من كوة في السقف وتسلق عليها حتى نفذ ثمت ، وانطلق إلى غرفة السلاح فأحضر اثنتى عشرة درعاً ورماحاً كثيرة وخوذات وظل يلقى بها من الكوة فيتلقاها رفاقه ويدرعون بها ... ولو كان مع أودسيوس سهم واحد يرسله إلى هذا العلج قبل أن يتعلق بالحبال لما استطاع أن يحضر هذه العُدَد . قال أودسيوس : « أي بني لقد خاننا أحد ودل القوم على غرفة السلاح فانظر كيف يتضاعف عناؤنا ويزيد بلاؤنا » فقال تليماك : « كلا يا أبتاه ، إنه لم يخنا أحد ، والذنب ذنبي ، فقد تركت باب الغرفة دون أن أوصده ... يومايوس ! إنطلق فغلق باب غرفة السلاح وأحضر مفتاحها ؛ وانظر هل خاننا أحد ، أو أن هذا من فعل ميلانتيوس كما أحدس ! » وانطلق يومايوس فرأى ميلانتيوس ذاهباً إلى غرفة السلاح ليحضر عُدَداً أخر ورماحاً ، فقال الراعي : « هاهو ميلانتيوس الوغد منطلق إلى الغرفة كما حدس مولاى » وهتف بتليماك : « هاهوذا ! هاهوذا ! هل أحضره حياً ليلقى جزاءه أم أقتله حيث هو؟ » فقال أودسيوس : « بل اذهب أنت وأخوك الراعى فشدا وثاقه واحبساه في الغرفة حتى يلقى جزاءه ، وسأتى أنا وتليماك لنذود دون الباب » وانطلق الراعيان فوقف كل منهما خلف مصراع من باب الغرفة حتى إذا برز ميلانتيوس انقضا عليه وكبلاه ودفعاه داخل الغرفة ، ثم ربطاه فى عمود هناك ، وقال له يومايوس « إهنأ يا صاح وارقد هنا إلى الصباح ، وأكبر ظني أن الشمس لا تشرق عليك إلا وروحك فى عالم الظلال والأشباح ، فلا تراك قطعانك بعد اليوم » وأغلقا الباب وعادا أدراجهما إلى مولاها وولده ، ووقف الأربعة يناضلون جحفلا بأكمله . ثم بدت مينرفا الحكيمة فى زي منطور وطيلسانه فعرفها أودسيوس وفرح بها قلبه ، وهتف بها قائلا : « منطور أيها العزيز معونتك وتأييدك فنحن صديقان منذ القدم ! » وهتف العشاق ينادون : « احذر يامنطور وإلا فتلقى حتفك بعد أن نظفر بهذا الوغد . ولحظت مينرفا ذعر أودسيوس مما رأى من تسلح القوم فقالت تؤنبه وتحثه : ما هذا التقاعس عن الحلبة يا أودسيوس ؟ هل فقدت شجاعتك وعنفوانك ؟ إنك ما أحجمت مثل ما تحجم اليوم طوال عشر سنوات حاربتها فى طروادة من أجل هيلين فهل يشق عليك أن تلقى هذه الحفنة من عشاق بنلوپ فى بيتك ، بل في عقر دارك ؟ هلم ! قف إلى جانبي وانظر إذا كان منطور قد عق الصداقة القديمة ! »

وحاربت معه ساعة ، ولكنها تركته ليعمل للنصر بمفرده ، وانسحرت فكانت عصفوراً من عصافير الجنة جعل يرف ويرف في سماء البهو ؛ حتى وقف على إحدى خشباته ... وفرح العشاق لما رأو من مفارقة منطور ، وعادت إليهم بعض شجاعتهم لما رأوا المحاربين الأربعة يقفون وحدهم فى مدخل الباب الكبير ... وقال أحدهم يخاطب الباقين :

(١) هو الراعي الخائن الذى أصبح ضلعه مع العشاق ضد مولاه أودسيوس

« هلموا فليقذف ستة منا رماحهم قذفة واحدة إلى صدر أودسيوس، فإنه إن سقط واسترحنا منه ، فلن نلقى عناء من الباقين » ولباه أصحابه ، فقذفوا برماحهم فى صدر أودسيوس ، ولكن.. هيهات.. إن واحداً منهم لم يصب غرضاً من الصدر العظيم ... وهنا ... هتف أودسيوس برفاقه ، فانقض الأربعة على أربعة من المهاجمين فجعلوا فى صدورهم رماحهم ، ورد الله كيدهم فى نحورهم ، فقتل كلٌّ مهاجمه ... وروّع الآخرون فارتدوا على أعقابهم ، وانزووا فى الركن السحيق من البهو ، وبهذا استطاع أودسيوس ورفاقه انتزاع الرماح من صدور المقتولين ... ولم يهتم الراعيان بما أصابهما من جراح بالغة ، بل وقفا يناضلان ويفديان سيديهما ... ولما رأت مينرفا ما باقى المحاربون الأربعة من تكاثر الأعداء ، رفت فى الهواء ، ثم كشفت عن درعها الهائلة التى تجلب الموت على كل من يراها ، ووضعت خوذتها الرائعة ثم انبرت للقوم ، وهجم المحاربون الأربعة يطاردون الأعداء ، والأعداء يجرون من ههنا إلى ههنا مذعورين ذاهلين مما رأوا من درع مينرفا ... وجعل أودسيوس ورفاقه يصطلمونهم أربعة بعد أربعة ... حتى لم يبق إلا المنشد المسكين فيميوس ، الذى قَسَره العشاق على الإنشاد لهم ، وتطريبهم تطريباً لم يؤثره ، ولم يؤجر عليه ... لقد فزع المنشد المسكين من هول المجزرة ... وانطرح تحت قدمى أودسيوس يقول : « مولاي ! أودسيوس العظيم ! ارحمنى واعْفِ فقد قهرنى القوم على ما رأيت ! اصفح عن المنشد البائس الذى يدخل السرور على أفئدة الآلهة ، ويذهب الحزن عن قلوب الناس ! » وهتف تليماك بأبيه يقول : « إصفح عنه يا أبى ، فإنه لا تثريب عليه ولا لوم ... وهلم ننقذ المنادى إن كان ما يزال به رمق ، فلقد كان يعنى بى إذ أنا صبي فى المهد ! » وكان المنادى قد فزع مما رأى ، وخبأ نفسه تحت مقعد كبير ، ثم طرح عليه جلد ثور ، فلما سمع تليماك يقول لأبيه هذا القول ، برز من مكمنه ، وتعلق برجلى تليماك ، وأنشأ يتوسل ويتضرع ، ويبكى ويتصدع . فقال له أودسيوس : « لا تجزع أيها الرجل ، فلقد أنقذك ولدي كما أنقذ المنشد ... اذهبا فانتظرا فى الرحبة ، فمدى مايشغلني عنكما الآن ... وانطلق الرجلان وهما لا يصدقان أنهما نجوا ، وجلسا عند المذبح ينتظران قتلهما فى كل لحظة ... ثم مضى أودسيوس يبحث فى البهو وتحت المناضد عمن يكون به رمق من الحياة فيجهز عليه ، بيد أنهم خروا جميعاً مضرجين بدمائهم فى التراب ، وقد تكبكبوا فوق بعضهم كالسمك فوق الساحل يقذف به الصياد فى يوم صائف ... ثم قال لابنه أن يدعو المرضع العجوز يوريكليا ، فأقبلت ورأت أودسيوس واقفاً كالأسد بين القتلى وقد لطخت الدماء يديه ورجليه وصدره ، فكادت المرأة تجن من الفرح لهذا النصر المبين الحاسم ، وأوشكت تصيح وترغرد ، لولا أن ردعها أودسيوس عن ذلك : « أيتها المرضع العجوز اكتمى فرحتك ، فإنه ينبغى ألا تكون شماتة فوق جثث القتلى ، وألا يكون صياح ، لأنها إرادة السماء وقد نفذت فيهم بما أسرفوا من قبل وكانوا من المفسدين ! » ثم أمر بالجثث أن تحمل خارج القصر ، وبالدماء أن تغسل ، فتم ذلك فى أقصر وقت ، والتفت إلى المرضع يحدثها ويقول : « أرأيت ؟ اذهبي الآن فأحضرى ناراً وكبريتاً كيما نطهر الحجرة ، ثم أخبرى بنلوب أن تلقانى ههنا ! » . فقالت العجوز « سمعاً وطاعة لك يابنى ! سأفعل ما أمرت ، ولكنى سأحضر لك ثوباً تلبسه قبل كل شىء ،

فإنه لاينبغى أن تظل واقفاً هكذا فى أسمالك هذه » بيد أن أودسيوس أمرها أن تفعل ما أخبرها من فورها ، فانطلقت العجوز ، وعادت بالنار والكبريت وأخذ أودسيوس فى تطهير البهو الكبير

بنلوب ... وأخيراً ... بنلوب !

وهرولت المرضع العجوز فصعدت إلى الطابق العلوى ، حيث كانت سيدتها المحزونة تتقلب على فراش الهموم والأحزان فهتفت بها وهي تضحك ، وتكاد تجن من الفرح : « هلمى يابنيتى فاشهدى بعينيك كيف حققت الآلهة أحلامك واستجابت لصلواتك ... هلمى ... لقد عاد أودسيوس وبطش البطشة الكبرى بأعدائه فقتلهم عن بكرة أبيهم بعد ما كان من خباثاتهم وبعد ما استباحوا من حرماته وما أراغوا من خيره وهزئوا بولده ... إنهضى ! »

ولم تصدقها بنلوب ، وقالت مستهزئة بها : « لشد ما عدوت طورك وغبت عن صوابك أيتها المرضع العزيزة حين توقطينى بمثل هذا العبث وذاك الحديث الملفق ! لقد حرمتنى من غفوة يالها من غفوة لم تكتحل عيناى بأهدأ منها ولا أروح منذ أن فارقنا أودسيوس إلى الأرض المشئومة ... تالله لو حصل مثل هذا ممن هن دونك سناً ومنزلة من الخدم لكان لى معهن شأن آخر ... ولكن ... لا عليك يا يوركليا ... » فتبسمت المرضع ثم قالت : « وَىْ ! تالله إنه للحق ، ولا مرية فيما أقول ... إنه هو الشحاذ الفقير الذي كلك ، والذى عبث به القوم وقد كان يعرف تليماك كل ذلك ، ولكنه جعله سراً بينه وبين أبيه حتى يثأر من الأمراء ويستأصل شأفتهم ! » فوثبت بنلوب من سريرها مبهوتة ذاهلة ، وطوقت بذراعيها عنق يوريكليا ، وأنشأت تقول : « خبرينى بالله عليك أيتها العزيزة .. خبرينى بالله عليك ... إذا كان ما تقولين حقاً فأنى لأودسيوس أن يلقي وحده كل هؤلاء ؟ وأنى لواحد أن يهزم فيلقاً من مائة أو يزيدون ؟ » فقالت المرضع : « لعمرك ما رأيت كيف حدث هذا الأمر ، ولكنى سمعت بأذنى هاتين أنين القتلى ... لقد كنا جميعاً جالسات داخل القصر ، وفرائصنا ترتعد من الفرق وكانت النوافذ كلها مغلقة بأمر سيدى ، حتى أقبل تليماك فدعانا إلى البهو ، حيث رأينا أودسيوس واقفاً بين الرمم وهو الآن يطهر البهو من أدرانهم بالنار والكبريت ؛ والمدفأ يتأجج بلظى كالجحيم ، ولقد أرسلنى لأدعوك إليه حتى يفرح بك ويطمئن قلبك بعد طول العذاب » وكانت العجوز تتكلم وهي ما تنقطع عن الضحك والمرح ، فقالت لها بنلوب : « أيتها المرضع العزيزة لا يقتلك الفرح والصخب .. تالله إنه لن يفرح بأودسيوس اليوم أحد كما أفرح به أنا وولدى تليماك ... هذا إن كان ما قلت حقاً ... على أننى لا أصدق ... لا جرم إنه إله كريم أقبل لينتقم لنا من هؤلاء العرابيد جزاء ما أنزلوا بنا من هوان فأبادهم جميعاً .. أما أودسيوس فلا ! لقد قضى أودسيوس ، وقضى إلى الأبد ! » فقالت يوريكليا : « أما تزالين غير مصدقة يا طفلتى (!) العزيزة ؟ ألا فاسمعى ! هاك دليلا آخر ؛ بينما كنت أغسل قدمى الرجل الفقير اللاجىء تحسست يداى ندوباً في فى ساقه ذكرتنى بالندوب التى أحدثها الخنزير البرى فى ساق سيدى أودسيوس ، فلما كشفت عنها تبينتها ، وتأكدت أنه هو ، وأردت أن أصيح بك لأخبرك ، وأزف إليك البشرى . لكنه أطبق يده على فمى فلم أستطع أن أنبس ... تعالي ! هلمى معي الآن وانظري بعينيك لترىْ إن كنت كاذبة ، تعالى جعلت فداك ! » وانطلقا معاً ، وطافت الذكريات

رأس بنلوب ، ولم تدر ما ذا عساها فاعلة إذا كان ما أنبأت به المرضع حقاً ... فلما دخلتا البهو جلست بنلوب على مقعد كبير من المدفأ ، ثم طفقت تحدق بصرها في أودسيوس ، وكان جالساً وظهره إلى عمود من عماد البهو ، وعيناه تبحثان في الأرض ، وكأنه كان ينتظر أن تتكلم بنلوب قبل أن يفوه هو بكلمة ... بيد أنها لم تنبس ، بل كانت ذاهلة شاردة ، تنظر إليه مرة فتوشك أن تعرف فيه بعلها الحبيب ، ولكنها كانت إذا نظرت مِزقه وخرقه ، والأسمال التي لا تستر بعض جسمه الهائل عجبت ، ولولاها الدهش ، وانعقد لسانها فما يكاد يبين

وقال تلماك آخر الأمر : « أماه ! لشد ما تحجر قلبك وغلظت كبدك : لم لا تنهضين فتعانق أبي !! أية زوجة ينحبس لسانها كما انحبس لسانك ، فما تكلم زوجها الذي آب من سفر سنين كلها أشجان وكلها أحزان ، وكلها آلام متصلة ومتاعب تنوء بحملها الجبال ! » فقالت أمه تجيبه : « تالله يا بني لقد ذهلت عن نفسي وإني لفي تيه فما أكاد أبين... ولكن إذا كان حقاً أودسيوس ، فان لنا علامات هي سرّ ذات بيننا ، ولا يعرفها أحد سوانا » فتبسم أودسيوس وقال : « لا عليك يا بني ! دعها فستستبين حقيقتي حين أخلع هذه الأسمال » ثم انتحى وولده ناحية ، وأسر إليه أنهما ينبغي أن يتهيآ لما عسى أن يكون من تألب الايثاكيين عليهما وشغبهم لما كان من قتل ساداتهم ، وما يتوقع من قيامهم بثورة عامة لا تبقي ولا تذر للانتقام من القاتل ... وذكر أودسيوس أنهما يجب أن يقيما في البهو فيأخذا في مثل ما كان العشاق يأخذون فيه من قصف وعبث ومجانة ... وحسب المارة أن بنلوب قد اختارت بعلها من بين الأمراء ... « فهي لم تعد تطيق الوحدة ، ولا تحتمل الترمل ، ولا تقوى على حياة الآمال الكواذب التي تجرعت غصصها مدى عشرين عاماً ... » أما أودسيوس فقد مضى فاستحم وتضمخ بأحسن الطيوب ، وأضفى عليه من كل سابريّ وفَسُوفٍ موشى ، ثم تنزلت مينرفا فنفخت فيه من روح الشباب ، وسكبت في عروقه دماء الفتوة ، ومسحت بيديها الكريمتين على وجهه المجعد ذي الأسارير فأشرق وتألق ، وهدّلت شعره على كتفيه غدائر فاحمة كقطع من الليل البهيم . ثم إنه انطلق إلى البهو فجلس تلقاء بنلوب وأنشأ يقول : « أيتها الزوجة المعجبة ! أما والله لقد ركبت بين جنبيك الآلهة قلباً ليس كقلوب النساء .. وأي امرأة تنتبذ من زوجها مكاناً قصياً كما تنتبذين يابنلوب ... بعد إذ عاد اليك من تجوال عشرين سنة كلهن قلاقل وأهوال ... يوريكليا ! هلمي فامهدي لي فراشاً بيديك الضعيفتين ، مادام الحديد البارد الذي خلق منه قلبها لا يلين ! »

ومع كل هذا فقد كان الريب يرين على فؤاد بنلوب ، فقالت تختبره : « مولاي : إني وأيم الحق لا معجبة ولا بي خيلاء ، ولكني أذكر أحسن الذكر كيف كنت يوم همت بك سفينتك الجبارة إلى اليوم ... يوريكليا ! اذهبي أيتها المرضع فأحضري سرير زواجنا من المخدع ، واجعلي عليه الوسائد والحسبانات ليستريح عليه مولاك كما أمرك . »

وعجب أودسيوس لما تكلمت به زوجته ، فقال : « إنك يا زوجتي تمزقين نياط قلبي بما تقولين : أنى لأحد ما من العالمين أن يحرك سريري بله أن يحمله ، إن لم تكوني قد أطلعته على سره ؟ لقد صنعت مخدعي واتخذت سريري في جذع الزيتونة الهائلة ... فهل ما يزال سريري في موضعه ثمت ، أم أن أحداً قد قطع الجذع العتيد واحتمل السرير إلى مكان بعيد ؟ » وهنا ، مادت الدنيا برأس بنلوب ، وتأكدت أن الرجل زوجها من

غير شك ، تخفق قلبها خفقاناً شديداً ، وانطلقت تعدو نحوه ، ثم طوقت عنقه بذراعيها ، وراحت تبكي وتنتحب ، وتقول له : « لاتنقم علي إذن يا أودسيوس ، ولا يحزنك أنني لم أعرفك منذ أول نظرة ... أواه أيها العزيز ! لقد قضت الآلهة أن نفترق ونتعذب كل هذه السنين وما كان من شكي فهو أثر من احتراسي خشية أن يخدعني أحد فيدعي أنه أنت ، ويزخرف على ويبهرج حتى ينالني بالخداع والحب ... ولكن ما دمت قد ذكرت لي سر المخدع والسرير والزيتونة ، وهو ما لا يعلمه أحد غيري وغيرك وغير يوريكيا ، فالآن فاهنأ ، ولأهنأ أنا ، وليطمئن قلبي ... قلبي الوفي الذي أرده إليك كآخر عهدك به ، لا ينطوي إلا على حبك ، ولا يضمر غير الوفاء لك .. » وعانقها أودسيوس ... وضم إلى صدره صدرها ... والتف حول عنقه ذراعاها البضتان البيضاوان — وجمد عاجمها الناعم الأملس حول كاهله، ووقف أودسيوس على شاطىء الذكرى كما يقف السباح المتعب المنهوك على شاطىء اليم وقد بلغه بعد جهد ، فأعضاؤه متراخية وأعصابه موهونة ، وقلبه خفق ، وروحه نشوى ، وذراعاه مع ذلك معلقتان بالشاطئ وقد سمرتا فيه ... وقال بعد لأي : « والله يا زوجتي العزيزة إنا ما بلغنا بعد نهاية أشجاننا وأحزاننا ، وإن أمامنا لا مداً بعيداً وهموماً أخر تنبأ لي عنها الكاهن تيريزياس حينما رحلت إليه في هيدز ، وإني لا أدري ماذا يكون من أمري ... ولكن ... لا ... لننطلق الآن إلى مخدعنا العزيز الطاهر فإني بي حاجة إلى الراحة والاستجمام ... وإن بي لشوقاً مبرحاً ونزوعاً شديداً إليك » . فقالت پنلوپ : « المخدع الطاهر الذي معد في أيما لحظة أردت يا أودسيوس العزيز ... بيد أنك أثرت شجني ونزعت شجوي بما ذكرت عما يتربص بنا من هم جديد ، فهلا ذكرت لي ماذا زعم لك تيريزياس في العالم الآخر ؟ إني مشوقة إلى ماقال ، فاذكره بحق الآلهة عليك » فأجاب أودسيوس « عمرك الله لم تسألين عن أمر إن يُبْدَ لك يَسُؤْك؟! ولكن لا ضير ... سأذكر لك ما نبأني به تيريزياس » ثم وجم قليلاً وقال : « لقد أشار أن أن أحمل مجدافاً عظيماً على كاهلي ، ثم أنطلق مهاجراً إلى ممالك نائية وأصقاع سحيقة ، حتى أكون في قوم لم يسمعوا عن البحر قط ، ولم يروا في حياتهم مجدافاً ولا سارية ، فإذا لقيت أول من يسألني عما أحمل ، وهل هو مذراة مما ينسف به القمح غرست المجداف في الأرض ، ثم تقربت إلى إلهه البحار نبتيون الجبار بقرابين تمحو ما بيني وبينه ، وتعقد بيننا أواصر السلام والوئام ، كما تقربني إلى أعوانه الآخرين من آلهة الماء ، فاذا فعلت استرحت من لأواء الحياة ، وجنبتني أرزاؤها ، وعدت إلى شعبي وإليك ، وإلى ولدي وقصري فعشت بينكم بسلام ، حتى يأتيني الموت هادم اللذات من أعماق البحر ، ولكنه سيكون موتاً طيباً لا مخوفاً ولا مرهوباً ، بل سكرة بين أمنة ونعاس . بعد إذ الجسم موهون ، والقلب فارغ ، والرأس مشتعل والروح سالية قالية . »

وهكذا ظل الحبيبان المشوقان يتحدثان قطعاً من الليل ، بينما كانت المرضع وخادمة أخرى تمهدان الفراش على ضوء المشاعل ... ثم أقبلت الوصيفة فذهبت تمشي بين أيديهما إلى المخدع ، وفي يديها المشعل المقدس يفيض نوراً ولألاء كما أفاض منذ عشرين سنة ... ولفهما ظلام الليل ، وستر الهوى ، وسكن البهو بعد ما ضج بالعزف والقصف ، وهدأ القصر في سدول السعادة

(الفصل الأخير في العدد المقبل) دريني خشبة

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧ ﴾